تقـديم

أ.د.بشير صالح الرشيدي

كثيرًا ما يتعامل المتخصصون مع الإرشاد النفسيّ على أنه عملية؛ يجيد فيها المرشد فن توظيف معرفته العلمية ومهاراته الشخصية وخبرته المهنية في تحقيق الجدوى من الإرشاد، تلك الجدوى التي تتمثل بصفة أساسيَّة في تحقيق وجود أفضل للفرد بأن يتمتع بالصحة النفسيَّة.

ومن المفترض أن المرشد هو شخص متوافق نفسيًا، وهذه السمة(التوافق) يتفاعل بها المرشد إيجابيًا مع المسترشدين، ويكون على استعداد دائم لتقديم المساعدة، بحيث يدرك الذين

يتعاملون معه بأنه يشعر بمعاناتهم ويتفهم مشكلاتهم، ولديه القدرة على مساعدتهم في بلورة أهدافهم في الحياة، وإدراك أفضل لقدراتهم؛ حتى يمكن أن يستخدموها في سلوكيات أكثر إشباعًا. والمرشد الذي يتفاعل إيجابيًا مع مشكلات الناس يكون بمقدوره مساعدتهم في التوصل إلى مستوى الاستبصار والوعي بأسلوبهم في الحياة وبطريقتهم في التعامل مع الآخرين ومواجهة المواقف.... في كل ذلك يكون المرشد على صلة قوية بحاجات المسترشدين ؛ يحترم قيمهم، ويفهم نموذجهم الثقافي .

ولقد أصّلت الاتجاهات الحديثة في ممارسة الإرشاد النفسيّ مجموعة من المسالك التي من خلالها يتم إعداد المرشد، وتشمل هذه المسالك أبعادًا تأهيلية، وأخرى تدريبية تطورية، وثالثة حرفية مهنية، بجانب ما يُسمى بالمسالك الإنمائية والتي تعني تنمية الاستعداد لدى هؤلاء الذين يمكنهم أن يصبحوا مرشدين نفسيين، إذ إن مجرد الحصول على درجات أكاديمية في الإرشاد

لا يكفي لأن يكون الشخص مرشدًا فعالاً، وإنما لا بُد أن يكون لديه الرغبة الحقيقية والاهتمام الحقيقي لكي يكون كذلك، وأن يسعى سعيًا حقيقيًا جادًا في سبيل إعداد نفسه لممارسة مهنة الإرشاد ليس فقط من خلال الدراسة الأكاديمية، وإنما أيضًا من خلال إثراء خبراته وإنماء مهاراته، وفهم المعايير الثقافية للمجتمع الذي يعمل فيه، وكذلك الالتزام بالمعايير الأخلاقية والقواعد المهنية التي تنظم مهنة الإرشاد.

وعلى الرغم من أن مهنة الإرشاد ليست هي المهنة الوحيدة التي تحتاج جهدًا مضاعفًا، وطاقة نفسية هائلة من جانب القائمين عليها، إلا أن هذه المهنة ذات خصوصية من منظور تكرار خبرة تركيز الشحنات النفسيّة وتفريغها من جانب ذوي المعاناة، وما أكثرهم في ظل ضغوط الحياة المعاصرة وتناقضاتها، هذه الخبرة المتكررة، يستشعر معها المرشد ضرورة تقديم المساعدة الفعالة، كما يستشعر معها ضرورة المعرفة وتواصلها ليس فقط من المصادر المتخصصة، ولكن أيضًا من المصادر الحية وهي ذوات المسترشدين بظروفهم الحياتية المختلفة، ومهنة الإرشاد

النفسيّ منظور (مبتكر) يكشف الإنسان فيه مواطن الزلل، ومحطات الخلل في التنشئة والاختيارات السلوكية، وفيها الوقوف على بشاعة وضعف درجات انحراف النفس البشرية في كل مستوياتها وبنيانها. يعرض الإنسان أمام المرشد النفسيّ الشحنات المتراكمة من خلال خبراته ومعاناته، ويصرخ من شدة ضغطها على أعصابه، فيسمع المرشد تلك الصرخات، ويرى آثار الكدمات النفسيّة الناتجة عن مواقف بشرية غير سوية سواء من ذات الإنسان أو من المحيطين به .

فالمرشد النفسيّ يلمس - بشكل متكرر - صدمات الأفراد، وآثارها في العلاقات، ويعرف الوجوه المختلفة للناس على اختلاف مستوياتهم، ويكشف الأقنعة مهما كانت شدة زيفها ودرجات عتمتها، فيعرف ما لا يعرفه الناس، وكثيرًا ما ينعكس ذلك على صحته النفسيّة وتعاملاته مع الآخرين.

وما لم يكن المرشد من ذوي الصلابة في الشخصية والمرونة في الأنظمة العقلية، فإن مصيره دمار ذاته، ومرارة مذاقه بطبيعة

الحياة، والعكس صحيح، فعندما يتسع عقله لمعرفة تموجات الحياة، وتعدد ألوانها وأشكالها، وتعقد خيوطها عند بعض زواياها فإن الانشراح سيكون مصيرَه، وتصبح الصحة النفسيّة جزءًا من تكوينه، وبذلك يعيش حياته كما هي بكليتها مشبعًا حاجاته وفق مفاهيم المسؤولية والواقعية والصواب .

والكتاب الذي بين أيدينا للمؤلفة/ موزة عبد الله المالكي يكشف عن شخصية مهنية عالية الكفاءة سواء من المنظور المهني، أو من المنظور الإنساني، إنه يكشف عن خلفية مهنية واعية، وممارسات إرشادية هادفة، في سياق تفاعل صادق مع المهنة والإيمان بأهميتها في التغلب على ما يواجهه بعض البشر من مآسٍ وآلام .

عندما يطالع القارئ هذا الكتاب، فإن أول ما يتبادر إلى ذهنه تلك الفكرة القائلة بأن «السعيد من كانت مهنته هوايته»، والسعادة بالمهنة، كثيرًا ما يعبر عنها بمفهوم «الرضا الوظيفي»، وهذا المفهوم يتضمن معنى الحب، والحب منطلق الإبداع

ومفجر الطاقات، وهو شعلة الوجود لمن اختار السمو بالوجود، ولمن اختاره لفكره طريق الخلود. في تجربة ذاتية، حصلتُ على مؤهلي الجامعي الأول في العلوم (تخصص كيمياء وجيولوجيا) وفي سياق الدراسة كنت أغوص بفكري في الطبقات الجيولوجية ذات التاريخ السحيق، كما كنت أشعر بالاختناق وسط غازات وأبخرة معامل الدراسة، هذه الظروف لها من يحبها بالتأكيد، لكن بالنسبة لي لم يكن الأمر كذلك، لقد آثرت أن يكون تعاملي مع الحاضر (هنا والآن)، أي أن يكون تعاملي مع الأحياء وليس مع الطبقات الجيولوجية، كما آثرت أن أنتعش بالأكسجين النقي بدلاً من أن أختنق بغازات وأبخرة المعامل، لكن الأهم من ذلك أنني آنست المجال المناسب الذي يمكنني من خلاله أن أكون (ذاتي) بعقلية الإنسان المنتمي، المؤتلف مع نفسه ومع العالم الذي يحيا فيه.. لقد وجدت في علم النفس التربوي مخرجَ حياة، وطوقَ نجاة انتشلني مما كنت فيه، وأزال عن كاهلي ضغوطًا بعد طول توتر.

في سياق دراستي لعلم النفس التربوي، تبينتُ آفاقًا رحبة فيما يتعلق بالمفاهيم التربوية، خاصة مفهوم (التربية) هذا المفهوم لم ولن يكون مرادفًا لمفهوم (التعليم) بالمعنى الضيق، فالتربية ليست مجرد تعليم، وإنما ينسحب معناها على كل ما يحقق التكامل في شخصية الفرد، ليحيا حياة طيبة في أبعاده الجسمية والنفسيّة والاجتماعية طوال حياته، ولكن كيف يمكن مساعدة الإنسان المعاصر على تحقيق ذلك؟ إن هذه الكيفية تتعدد مسالكها ودروبها، وفي مقدمتها مهنة الإرشاد النفسيّ. لكن فاعلية المهنة في تحقيق الذات، وإفادة المجتمع، تتوقف على شخصية القائم بها.

وإذا طالعنا تقارير الحالات التي عرضتها المرشدة النفسيّة / موزة المالكي ندرك جانبين في منتهى الأهمية، الجانب الأول هو صدق التعاطي مع مهنة الإرشاد، والتفاعل معها والانفعال بها، أما الجانب الثاني فهو التكامل بين الهواية الشخصية والدراية العلمية.

إن تجربة المعالجة النفسيّة/ موزة المالكي تمثل معلم طريق في تحديد المسار المهني، فقد بدأت بالهواية التي قادتها للتفاعل مع مشكلات الطالبات، فوجدت نفسها تهوى قبول التحدِّي والتصدي للأزمات النفسيّة وبدأت في ممارسة تلك التوجيهات الصادرة من مربية إلى تلاميذها، والنصائح التي عرفتها من خلال تجربتها في الحياة، لكنها لم تكن قد ارتوت من معين ممارسة الإرشاد النفسيّ الذي يعطيها الأسس العلمية لحل المشكلات النفسيّة، فدفعت نفسها بحماس للبحث في مجال تخصص يزيد من فاعليتها، وكفاءتها في التعامل مع المشكلات النفسيّة عند الناس، واختارت تخصص (الإرشاد النفسيّ) وبذلك امتد وجودها العملي من مجرد هواية شخصية إلى دراية علمية أساسها ما اصطلح على تسميته «بالاستعداد الاجتماعي».

فالاستعداد الاجتماعي هو أحد المقومات الأساسيّة التي ينبغي توافرها في المرشد الفعَّال، فالاستعداد الاجتماعي يعني أن يكون المرشد لديه القدرة على أن يتفاعل مع الآخرين: يعمل معهم، ويلتقي بهم، وينفتح عليهم، ويرحب بانفتاحهم

عليه، يقبل على مساعدتهم، ويسعد بتلقي المساعدة منهم، والاستعداد الاجتماعي يتضمن تكوين البصيرة الاجتماعية لدى المرشد، كما يتضمن فرصًا أرحب لتحقيق التقبل المتبادل بين المرشد والمسترشد في إطار علاقة إنسانية تجعل المرشد محل ثقة واطمئنان، وتسمح للمرشد بأن يوجه هذه العلاقة ويديرها في اتجاه تحقيق الهدف من العملية الإرشادية.

وفي عرض تجربتها الذاتية المتفاعلة بحرفية مهنية وإنسانية صادقة مع الحالات، تبلور المعالجة النفسيّة بعض أشكال المعاناة التي يواجهها المرشدون النفسيّون، مثلما تبلور التجارب الانحرافية والمعاناة التي يخبرها هؤلاء الذين لديهم اختلال نفسي، إن القارئ المتخصص – المندمج في مهنته بصدق سوف يستفيد جدًا من هذه الأفكار، ليس فقط لإتقان أدائه المهني، ولكن أيضًا في تشكيل سياج أمن ذاتي وهو بصدد التعامل مع حالات يحتدم داخلها الصراع، وتتقاذفها الأمواج العاتية من التوتر والغضب وغير ذلك من مظاهر الاضطراب النفسيّ.

لقد أجادت المعالجة النفسيّة في عرض حالات معقدة، مصدر الإجادة، ليس فقط الأسلوب السهل الذي يفهمه عامة الناس ولكن أيضًا (جمال اللغة)، لقد تمكنت المؤلفة من جذب انتباه القارئ والمحافظة على اهتمامه بحيث يتشوق إلى معرفة التطورات ويتابع تقرير الحالة كاملاً، مصدر الإجادة أيضًا فيما كتبته المؤلفة، تلك الواقعية العفوية بأفكار توضح الغامض، وتبسِّط المعقد، وتعمِّق الظاهر، وتُظهر ما خفي في أعماق النفس البشرية .

وكثيرًا ما نوقشت قضية انفصال علم النفس عن الواقع في المجتمع العربي، وهناك حاجة متزايدة لحسم هذه القضية، حسبما عبر عن ذلك العديد من علماء النفس العرب في أكثر من لقاء علمي، ومن الواضح أن المعالجة النفسيّة / موزة المالكي قد أدركت تلك المسألة، كما أدركت أهمية علم النفس في التأثير بمسار المجتمع، وضرورة توظيف هذا العلم لمواجهة مظاهر الاغتراب المصاحبة للتغيرات المجتمعية منذ حلول ثروة النفط،

وفي «لحظة استبصار» عقلي وبدافع الحس المتنامي للمشاركة الإيجابية في دفع مسيرة التقدم في المجتمع ، وجدت الباحثة في دراسة علم النفس ما يحقق ذلك .

ما أجمل تلك اللحظات النفسيّة التي يكتشف فيها الإنسان علاقته بمهنته وباستخدام وظيفته في تنمية المجتمع ، إنها لحظات انتعاش الذات، وتحفيزها نحو المزيد من العطاء؛ فإن في تلك السعادة رحلة عقلية نحو صورة ذهنية بغض النظر عن واقعيتها أو مصداقيتها؛ ولكن الأهم حضورها حية في عقل عاشقها، ومكونها. وأحسب أن المؤلفة قد اكتشفت أهمية تخصصها، وعشقت مساراته، ووظفت نظرياته في مجتمع متغير سريع التحول، وفي وقت كانت تعيش فيه «سوء حالة وحشة التفرد»،

وفي عرض تجربتها الشخصية فيما يخص تحديد مهنتها المستقبلية تقدم المعالجة النفسيّة/ موزة المالكي نموذجًا لمن يتحرَّى الاختيار الصحيح، فقد تحسست مشاكل طالباتها، وانفعلت بما طرحته الطالبات من مشكلات، فكانت لحظات

الصدق عند المؤلفة أثناء الاستماع بمثابة الدافع للتحدث عن أداة صالحة لمعالجة تلك المشكلات، وكان علم النفس الحل المعروض، والبديل المقنع للتعامل مع الواقع المعاش. فالانطلاق نحو مجال مهني معين قد جاء من تلمُّس الواقع والانفعال به، واكتشاف المهنة في التصدي أو تحدي ذلك الواقع إما بتعديله أو بتبديله أو قبوله. وبذلك تكون المهنة أداة في المساهمة الفعالة لحل مشكلات الناس، وليست مجرد وسيلة للاسترزاق، أو شهادة ورقية لا تسمن ولا تغني من جوع. إن تجربة المؤلفة في عرض لحظات اكتشاف الذات للتصدي للمشكلات النفسيّة دعوة للتفاعل والانفعال مع معطيات الحياة، وتوظيف الإمكانيات من خلال اختيار التخصص المناسب للشخص، بصرف النظر عن آراء الآخرين.

والكاتبة موزة المالكي في عرضها لتقارير الحالات، لم تخرج عن النموذج الثقافي في المجتمع العربي، وإنما أضافت إلى هذا النموذج، لقد أظهرت إشاراتٍ حمراءَ لما يمكن أن يحدث في

عالم الخفاء، وبما يثري خبرة المرشدين النفسيّين، وكذلك بما يفيد الأطراف القائمين على التربية والأسرة بما يمنع حدوث الانحرافات والانهيارات النفسيّة، تقول المؤلفة: (في بداية الأمر وجدت أن التجربة مقززة على نحو لا ينبغي خوضها، على الأقل لأن الخبرات التي سأخرج بها لن تفيد في مجتمعاتنا المحافظة التي قلما تشهد مثل هذه الإفرازات، ولعل سيادة الوازع الديني لدينا واعتناقنا لفهم وشروط تربوية تمثل أمام هذه الإفرازات سياجًا واقيًا في مجتمعاتنا، وقد يتطلب الأمر سن عقوبات رادعة تمثل وقاية قبل أن تنهمك المؤسسة في العلاج، فالوقاية في مثل هذه الحالات أكثر وجوبًا).

لقد قرأتُ هذا الكتاب بعقلية المتخصص تارةً، وعقلية غير المتخصص تارةً أخرى، فوجدتُ فيه إضافة إلى الممارسة المهنية للإرشاد النفسيّ، كما وجدت فيه قدرة على التبسيط المتكامل للمعاني المتخصصة بما يتيح خروج هذه المعاني من ضيق التخصص إلى رحابة العمومية، وبذلك تنتشر الثقافة النفسيّة

في المجتمع، ويتواصل العطاء في إطار مجال الإرشاد النفسيّ فيكون علمًا نافعًا للناس.

والله المستعان،،

أ.د. بشير صالح الرشيدي

أستاذ علم النفس التربوي بجامعة الكويت
رئيس مجلس أمناء مكتب الإنماء الاجتماعي
بالديوان الأميري